رواية الحسنا

شهامة امرأة

الوقت مساء والشمس تأذن الى ما وراء البحر كعروس ملتحفة بأثوابها الذهبية ومتقدمة الهوينا بكل عظمة واجلال وقد ارسلت اشعتها على احد البيوت حيث كانت امرأة جالسة الى نافذة ، ساندة راسها باحدى يديها والثانية قابضة على منديل تمسح به دموعها من وقت الى اخر . وما كانت تبدي غير اشارات حزن . . حتى كان يخال الناظر اليها ان قلبها قد طعن بحربة قتالة . . .

وها قد تقدم الليل راخيا على الطبيعة حلته السوداء وساد السكون وهي لا تزال غارقة في هواجسها مستسلمة لافكارها . . بقيت هكذا نحو ربع ساعة . . فلما استفاقت بكت بكاء مرا وصرخت بصوت يفتت الاكباد : بقي له الغد . . و . . . آهاً ان هذا الفكر وحده يجعلني بحالة اليأس . . قالت هذا وارتمت على سريرها باضطراب عظيم . ولكن كيف يمكنها ان تستلذ بنومها او كيف يجنيها النعاس الهني وهناك تحت جدران سجن مظلم رجل هو حليلها سيموت غداة غد عند قرعة الجرس . لجرم ارتكبه في العسكرية بين جيوش كرامويل ؟ . . . فلهذا كانت اليصابات تفتكر في نفسها دون ان تجد طريقة لخلاص رجلها .

وما اصبح الصباح الا واسرعت الى معسكر كرامويل قرب المدينة وارتمت على رجليه بالة الارض بدموعها وسائلة الصفح عن ريشار حبيبها . فكان ذلك باطلاً . فتراكضت اذ ذاك الى اهله واصحابها فما كان منهم الا ان بكوا لبكائها وتنهدوا لاسفها دون ان يجدوا لها نفعاً . فقالت حينئذ بعزم مقاومة لكدرها : لا . لا ادع الجرس يقرع

لفظت هذه الكلمات ودخلت الى حجرة دقاق الجرس وتكلمت بقلب مجروح مرفقة كلامها بدموعها . ولكن الدقاق . ما كان بطاقته ان يخون واجباته فاجابها بصوته الخشن – الق اتكالك على الله فهو يدبرك ويرفق بك سبحانه وتعالى اما انا فمن واجباتي ان اقرع الجرس عند اول امر . فبقيت الامرأة واقفة لاتبدي حراكاً وتفكرت هنيهة ثم قالت : من المحال ان ادع الجرس يقرع . . . ولكن الحب اديب حاذق " فرجعت اذاً الى افكارها العميقة . والقصد الذي اتخذته بنفسها صار قريب الانجاز . . وكانت اذ ذاك الشمس ينورها الساطع تتاطح البحار لتغيب ما ورائها . نصف ساعة بعد ويعطى الامر

عند ذلك خرج الدقاق كبيار الى عتبة حجرته . وهو مكشوف الراس وكان النسيم يمر على شعره الابيض ويبدله على كتفيه لاعباً به . هذا الرجل الشيخ الذي مرت عليه اهوال عظيمة ورأت عيناه مناظر يشيب شعر الراس لذكرها كان متماً وظيفته منذ ٦٠ سنة حسب القانون وبتدقيق عظيم . خرج اذاً متوجهاً نحو الباب وماشى قليلاً الا وراى امراة مسرعة اليه وهي مستغيثة به فالقى بنظره اليها ولاحظ اضطرابها وحركات شفتيها وقال تكلمي وبصوت عال لاني اصم فاوهمت اليصاباب وقالت بصوت قطعته التنهدات

– كبيار بحبتك للسما . لا تقرع الجرس .) – كيف لا اقرعه ! ابك جنون

– كرامة لله ولي تناسى هذه المرة . وزوجي يخلص من الموت . وهالك ما ترغبه نفسك . لانه مبلغ كاف ليقوم بكبر سنك بقية عمرك فاني بعت كل جواهري وحلاي وهذه القيمة لك ان ابيت قرع الجرس هذه المرة

– اتريدي ان تفسدي اخلاقي – اجاب كبيار بصوت عالي – . ان دم والدتك لا يبل في عروقك اعلمي اني مارست هذه المهنة بكل امانة مدة ٦٠ سنة وتريدي ان اخون اليوم . كلا . انزعي هذه الافكار من عقلك

ولو قدمت لي مال قارون (ودولة هارون) لا اعمل الا حسب ضميري ولا يهمني زوجك. لا لا دعيني لانك تطلبي المحال

فاشتدت اذ ذاك حسرات الامراة وتضاعفت زفراتها ثم اطرقت عينيها الارض وهزت راسها ومشت وهي تتكلم بالفاظ لا تفهم ....

اما ريشار فكان واقفاً تحت ظل زيزفون جميل. ويقربه حرسه متكئون على الحضير. ولكن ما هو ذنبه ليحكم عليه بالموت. آه ان سيف كراموبل لا يعرف صديقاً ولا عدواً. الويل لذاك الذي ينادي منتصراً للملكية ومنة ويل للذي يخالف امر الكراموبل ... ها قد حان الاوان دقيقة بعد. والجرس يقرع. موت ريشار. يا لها ساعة حرجة مسكينة يا اليصابات كم يخفق قلبك الان

غابت الشمس وجرس كبار لم يدق. ريشار يتأهب لسفر الى الابدية وامراته التعيسة تندبه وهي بعيدة عنه.

لما قطعت اليصابات الحديث مع دقاق الجرس تقدم هذا قليلاً نحو الباب فما لمحته الا وباخف من الطائر عمدت الى درج القبة مرتقية الى العالي ومن وقت الى اخر كانت تطل من نوفذها الى تحت خيفة من مفاجاة سيئة. في الوقت نفسه استعد كبار لتتميم مهمته حينئذ قفزت الامراة ما بقي من الدرجات وقبضت على الجرس بيديها اللطيفتين متمسكة به ثم رفعت الحاظها الى السما. قائلة بحنو — ربي تعال لمعونتي.

لقد قرب اجلك يا ريشار فسقياً لشهامة امراتك ما احن قلبها واشجعها ها قد تقدم دقاقنا واخذ الحبل بيده — لا ادعك تقرعه ولو كلفت نجاتي. عند ذلك رجف الحبل فقبضت اليصابات على المضرب بكل قواها مرتعشة وتلفظت بالاسمين الكريمين فاهتز الجرس ومعه المضرب ولكن ما سُمع له صوت اما الامراة فابرحت متعلقة بضرب الجرس حتى ان يديها جرحتا جرحاً بليغاً اذ انسلخ

جلد كفيها وسال الدم بغزارة . .

ان اذني لم تطاوعني وقد ابت علي خدمتها . ها قد انهيت فرضي متمماً امر سيدي ولكني ما سمعت قرع الجرس اصغاً لكبر سني وفقد سمعي ـ قال الشيخ هذا ومسح من على جبينه عرقاً بارداً

ثم سار نحو شارع المدينة وما كاد يقطع مسافة قليلة حتى انتصب امامه شخص مخضب بدمه وبلا قوى : هو تلك الشجاعة المسكينة صاحبة المروءة

لندعها متأملة باوجاعها وذاهبة لزيارة رجلها ولنشاهد كراموبل بوجهه العبوس متعطياً فرسه الدهماء وهو يزيد غضباً منتظراً قرع الجرس لاعطاء الامر بقتل المذنب الحزين . فتارة يخنق بذلك وتم بهذا وطوراً يضرب الارض برجليه يستشيط غيظاً ويشتم ويلعن .

اخيراً رفع يده اليمنى واشار بها الى جنوده ان استعدوا . فوقفت الجنود واخذت بنادقها وصوبتها على ريشار

وبالحال ركضت امراة وشقت صفوف الجنود ودمها يسيل على ذراعيها ثم انطرحت راكعة على الارض ومدت يديها متوسلة وصرخت بصوتها العذب : ارحم سيدي . ارحم امرأة ورد زوجها لها ولا تعجب لعدم قرع الجرس فاني انا كنت السبب

وعند ذلك بسطة له القضية بجزع عظيم . فنظر اليها كراموبل بعين الحنو ورق لشبابها ثم نزل عن فرسه وانهضها وامر باطلاق السجين .

اعتبري انها قصة ذات بال فليقتدين النساء باليصابات التي قدمت النفس والنفيس لخلاص زوجها . خاطرت بنفسها لنيل مأربها باعت كل ما لديها لتتخلص رجلها من ايدي كراموبل القاسي وقد فازت عليه برقة الطافها وشهامتها هكذا فلتكن النساء .

انطون عبدالله مدلل